الصورة الحسية البصرية لدى ابن الوردي

بيان محمد زهير لطفي* د. وجدان المقداد**

(الإيداع: 5 شباط 2024، القبول: 19 آيار 2025)

الملخص:

يمثل البحث محاولة جادة لدراسة الصورة الحسية البصرية لدى ابن الوردي، وقد تفرد البحث بالصورة البصرية نظراً لأهميتها؛ فالبصر يعدّ في مقدمة الحواس التي تصوّر كل ما يجري من حولنا، وارتأت الباحثة ضرورة تقسيم الصورة البصرية إلى أربعة أقسام وفقاً لطريقة العرض التي قدّم فيها الشاعر صوره، وهي: الصورة البصرية الطبيعية، والصورة البصرية الواقعية، والصورة البصرية الضوئية، والصورة البصرية اللونية؛ ليسهل تفنيدها ودراستها، سواءٌ أكانت هذه الصور الحسية مستوحاة من الواقع، أم تقوم على استرجاع صور من عالم الخيال من خلال توظيف الطبيعة في صياغة صوره توظيفاً مجازياً، وذلك بالاعتماد على أفعال الرؤية، وأدواتها، مستفيدة من الآليات المتبعة في تناول الصورة، والتركيز على الجوانب المرئية في عرضها.

الكلمات المفتاحية: الصورة، الحسية، البصرية، ابن الوردي.

*طالبة ماجستير- اختصاص أدب عباسي - كلية الآداب- جامعة حماة.
**دكتورة - اختصاص أدب عباسي- كلية الآداب- جامعة حماة.

The visual sensory image according to Ibn al-Wardi

Bayan Muhammad Zuhair Lutfi *Dr. Wejdan Al-Miqdad**

(Received: 5 February 2024, Accepted: 19 May 2024)

Abstract:

The research represents a serious attempt to study the visual sensory image according to Ibn al-Wardi. The research was unique to the visual image due to its importance. Sight is at the forefront of the senses that visualize everything that is happening around us. The researcher considered it necessary to divide the visual image into four sections according to the method of presentation in which the poet presented his images: the natural visual image, the realistic visual image, the optical visual image, and the color visual image. To facilitate their refutation and study, whether these sensory images are inspired by reality, or are based on retrieving images from the world of imagination, by employing nature in formulating its images metaphorically, relying on the actions of vision, and its tools, through the mechanisms used in dealing with the image. And focus on the visual aspects of its presentation.

Keywords: image, sensory, visual, Ibn al-Wardi.

*Student Master – Specialization in Abbasid Literature – College of Literature – University of Hama.

**Doctor – Specialization in Abbasid Literature – College of Literature – University of Hama.

تعريف المصطلحات الإجرائية

عُرِّفت الصورة لغة كما جاء في لسان العرب عند ابن منظور بقوله[1]:" الصورة ترد في كلام العرب على ظاهره، وعلى معنى حقيقة الشيء، وهيئته، وعلى معنى صفته . يقال :صورة الفعل كذا وكذا أي: هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي: صفته." وقيل في الحسّ لغةً: فهو من حسس، وحسَّ الشيء يَحسُّ حَسّاً وحِسّاً، وأحسَّه أي: بمعنى شعر به، ويقال: حَسستُ الشيء إذا عرفته وعلمته.[2]وأمّا البصر لغةً: هو بَصُرَ به بَصَراً وبِصارةً، وأبْصَرَهُ وتَبَصَّرَهُ: نظر إليه هل يُبْصِرهُ. وقيل أيضاً: البَصَرُ حاسة الرؤية، والبَصَرُ حِسُّ العين والجمع أبصارٌ.[3]

وفي الاصطلاح؛ فقد عُرّفت الصورة: بأنّها " تشكيل لغوي يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها؛ فأغلب الصور مستمدة من الحواس ، إلى جانب مالا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية، وإن لم تكن بحجم الصور الحسية، أو يقدمها الشاعر أحياناً كثيرة في صور حسية."[4] وأمّا الحسُّ فقيل: " تمثيل فيزيائي لشخصٍ أو حيوانٍ أو شيءٍ يُرسم، أو يُنحت، أو يُصوَّر ليكون مرئياً. ومثل ذلك الانطباع الذهني أو التشابهُ المتصورُ الذي ينبع من كلمةٍ أو عبارة."[5] فالعالم المحسوس هو الركيزة الأولى في بناء الصور الشعرية؛ لأن الفنان لا يستطيع أن يخرج نفسه أو حتى تفكيره من سيطرة الحواس، والتي تكون خير معين في بناء صوره فضلاً عما يختزنه العقل من صور تكون محفزة له على عملية الإبداع، وأمّا في البصر فقيل:" البصر أدقّ الحواس حساسية وتأثراً بالواقع المحيط؛ فعن طريق العين يكون الاحتكاك مباشِراً بموضوع التجربة، بل إن هذه أسبق الحواس إلى إدراك هذا الواقع."[6]

التعريف بابن الوردي:

ابن الوردي هو: "زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس بن الوردي المعري الحلبي الشافعي."[7] يعود نسبه إلى أبي بكر الصديق، وهو الفقيه الشافعي، العالم والشاعر والأديب، ولد في معرة النعمان سنة 691هـ، عكف على تحصيل العلم وقرأ على جماعة من العلماء منهم شرف الدين البارزي وصدر الدين محمد بن زين الدين وغيرهم الكثير، برع في المنظوم والمنثور، وله مصنفات كثيرة، حتى أصبح رجل دهره وفاضل عصره، من مصنفاته: شرح الفية ابن مالك، وتحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة، وقصيدة اللباب في علم الإعراب، ولاميته الشهيرة، والبهجة الوردية، وغيرها الكثير من المصنفات. [8]

منهج البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في قراءة صور ابن الوردي وتحليلها وفق السياقات التي وردت فيها.

حدود البحث وفرضياته:

يفرد البحث دراسة مخصصة للصورة البصرية نظراً لتشعبها واتساعها، ويدرس الصورة البصرية بعد تقسيمها إلى صورة بصرية طبيعية، والواقعية (الاجتماعية والنفسية)، وضوئية، ولونية.

---

[1] لسان العرب: ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت، مادة (صور).

[2] المصدر نفسه: مادة (حسس).

[3] المصدر نفسه: مادة (بصر).

[4] لصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: د. علي البطل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2(1401هـ –1981م)، ص30.

[5] المعجم المفصل في الأدب: د. محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ج1، ط2(1419هـ– 1999م)، ص592.

[6] الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس: د. وحيد صبحي كبابة، اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ص91.

[7] شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مج1 ،ط1(1406هـ –1986م)، ص(275)

[8] تاريخ معرة النعمان: محمد سليم الجندي، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه: عمر رضا كحالة، دمشق وزارة الثقافة، ط2 (1994م)، ج119/3.

مشكلة البحث:

تدور مشكلة البحث حول أهمية الصورة الحسية البصرية في شعر ابن الوردي بعد تقسيمها ليسهل دراستها وفقاً لطريقة عرضها في الديوان.

يهدف البحث إلى:

الوقوف على الصور البصرية الطبيعية، والاجتماعية، والضوئية، واللونية، والإحاطة بها كما وردت في ديوان ابن الوردي، وتناول الصور البصرية اعتماداً على أدوات الرؤية وأفعالها، سواء أكانت حسية أم مختزنة في ذاكرة المبدع، ومن ثمّ الكشف عن خبايا صور ابن الوردي البصرية، والوقوف على أهم الدلالات التي تقوم عليها، مع تتبع الآليات التي اعتمد عليها ابن الوردي في تشكيل صوره.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في تقديم دراسة مخصصة عن الصورة الحسية البصرية من خلال الإحاطة بها، وتناولها وفق طريقة العرض التي قدّم فيها ابن الوردي صوره، مع الوقوف على الصور الطبيعية، والواقعية (الاجتماعية والنفسية)، والضوئية، واللونية؛ لما لها من أثر عميق في نقل تجربة الشاعر الشعورية.

أسئلة البحث:

- هل استطاع البحث الإحاطة بالصورة البصرية؟
- هل استطاعت الصورة الحسية البصرية أن تكشف عن تجربة الشاعر الشعورية؟

الدراسات السابقة:

- الصورة الحسية عند عبد القادر الجزائري، إعداد الطالبة: عبلة حمودي، جامعة بوضياف بالمسيلة، تاريخ المناقشة:3\6\2015.
- أثر كفّ البصر على تشكيل الصورة الحسية عند أبي علي البصير: د. يوسف عباس علي حسين، كلية الألسن، جامعة الأقصر، مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)، جامعة جنوب الوادي، العدد53 (ج2) يوليو 2021م.
- الجانب البديعي في شعر ابن الوردي، د. أحمد فوزي الهيب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (72)، الجزء(1).
- توظيف الموروث في شعر ابن الوردي (ت749هـ)، إعداد: مها أحمد نايف طربوش، إشراف: د. رائد مصطفى عبد الرحيم، قدمت الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2013م.

مقدمة:

تقوم الصورة الحسية على معطيات حسية، تعتمد في فاعليتها على الحواس؛ فالحواس تمثل نوافذ يطلّ منها الإنسان على العالم الخارجي، برؤاه الفكرية، وتخيلاته الذهنية؛ لتعبّر عن حالته النفسية من خلال الروابط التي يعقدها بين الحقيقي والمتخيّل؛ لتشكيل صور تحمل انفعالات الشاعر، وإحساسه بالبيئة والواقع الذي يعيش فيه، وتأتي حاسة البصر في مقدمتها نظراً لأهميتها؛ لذا اعتمد ابن الوردي عليها في تشكيل صور تموج بالحياة من خلال توظيف لقطات تعبر عن وجوده، وكيفية انفعاله مع هذا الوجود، متكئاً على أفعال الرؤية، ومؤشراتها، وأدواتها، في تشكيل صورٍ يبدعها خياله الحر؛ ممّا يسهم في تشكيل صور تقوم على الرؤية وفق مفهومها الأوّلي، والتي تمثل البعد المركزي للصورة؛ ليتأسس عليه البعد الثاني وهو الرؤيا وفق مفهومها الخيالي؛ فهذه العلاقة الوطيدة الناشئة بين الاثنين تشكل صوراً تحاكي الواقع الاجتماعي الذي يقدم المادة الأولية والحسية؛

لينطلق الشاعر منها متجاوزاً ذلك الواقع؛ بما يمتلك من أدوات فنية إبداعية ممثلةً الرؤيا،[1] وهذا يمثل المعنى الحقيقي للتصوير؛ لأن الصور إنما تتشكل من خلال مزج مشاهداته الحقيقية مع عالم الخيال، وإعادة صياغتها في قوالب لغوية جديدة؛ بما يناسب إحساسه العميق؛ فينطلق المبدع في تشكيلها استجابة لانفعالاته وتجربته الشعورية معبراً من خلالها عن آلامه وأفراحه، وسيتناول البحث الصورة البصرية الطبيعية، والصورة الواقعية (الاجتماعية والنفسية)، والصورة البصرية الضوئية، والصورة البصرية اللونية؛ ممثلةً بأدوات الرؤية، وأفعالها.

1- الصورة البصرية الطبيعية: تمثل الطبيعة بمواردها الخصبة ومكوناتها التي لا تنضب من سماء وماء ورياض وغير ذلك مصدراً مهماً من مصادر الإلهام التي يستقي منها الشاعر فيض إبداعه، وجزءاً لا يتجزأ من تجربته الشعورية؛ فالأشياء المحسوسة الماثلة أمام الشاعر والمتمثلة في الطبيعة هي أدواته التي ينطلق منها، فيخضعها لفكرته وتفكيره الحسي،[2] وابن الوردي شاعر نشأ في مدينة معرة النعمان وترعرع في أحضان طبيعتها الجميلة والتي شبهها في شعره بجنان الخلد، إذ نراه ينطلق في العديد من صوره الشعرية من الطبيعة التي طبعت في ذاكرته ولم يستطعْ مفارقتها في شعره مثل: صورة الغمام التي نسجها من أدوات الرؤية[3] إذ يقول: [4]

يبكي الغمامُ لها ويبتسمُ الثرى ضدَّين فعلُ أخي الصبابةِ والخلي
وادي فضالــتِها وبـابُ شبابها كـفـلا لســـــاكنِهـا بسعـــدٍ مكـمَـلِ

استند ابن الوردي إلى دلالة (بكاء الغمام وتبسم الأرض) في تشكيل صورة بصرية طبيعية، بالاعتماد على آلية التشخيص، والتي تقوم على منح الطبيعة صفاتٍ إنسانيةً،[5] بجعل الغمام يبكي ويذرف الدموع، والأرض تبتسم باستقبالها لفيضه، مما أعطى للصورة بعداً جمالياً، فالشاعر في تشوقه لمعرة النعمان عمل على تشخيص الجماد وبعث الحياة في الطبيعة؛ ليظهر ما فيها من جمال. فاستطاعت الصورة الحسية البصرية أن تكشف بدلالاتها عن مواقع الجمال المتمثلة في تصويره وهي استمرار الحياة على الأرض باستخدام آلية التشخيص.

وفي صورة أخرى يربط بين بكاء الغمام وضحك الأرض فيقول:

واعجباً منَ الغمامِ يبكي والروضُ منْ بكائِهِ في ضَحْكِ[6]

يعتمد الشاعر على أدوات الرؤية البصرية في توظيف لغته الشعرية، التي تحفز ذهن المتلقي على تشكيل صورة شعرية، تجمع بين بكاء الغمام وضحك الروض، فالجمع بين المتناقضات والثنائيات الضدية جعل دلالة الصورة غنيةٌ بمعنى التجدد، "والحديث عن الثنائيات الضدية يعني حديثاً عن توازي الثنائيات، وسير طرفيها جنباً إلى جنب معاً."[7] فالتشخيص استطاع أن يخرج الصورة عن صمتها وسكونها ويجعلها نابضة بالحياة من

---

[1] ينظر: الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا- تجربة الحداثة في مجلة شعر وجيل الستينات في سورية: د. عبد الله عساف، دار دجلة، القامشلي، ط1(1996م)، ص93.

[2] ينظر: التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، ط4، ص100.

[3] أدوات الرؤية: "تبرز دور المخيلة في الاسترجاع البصري للصورة، وإعادة تشكيلها بما يناسب رؤية الشاعر." الصورة الشعرية الحسية تشكيلاتها الفنية ودلالاتها الصوفية في شعر عبد الله: د. لخميس شرفي عبد الله، جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر، تاريخ النشر: 22\3\2020، ص76.

[4] ديوان ابن الوردي: عمر بن الظفر، تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط1(1407هـ 1986م).ص329.

[5] ينظر: بنية الصورة الفنية في النص الشعري الحديث (الحر) نازك الملائكة أنموذجاً: د. رائد وليد جرادات، مجلة جامعة دمشق، المجلد 29، العدد (1+2)، 2013م، ص580.

[6] ديوان ابن الوردي: ص260.

[7] الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم: د. سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2009م، ص4.

خلال البكاء والضحك الذي أكسب التصوير حساً إنسانياً، فوظف ابن الوردي عناصر البيئة الطبيعية توظيفاً حسياً بصرياً راسماً من خلال تلك الصور الجزئية جمال الطبيعة في معرة النعمان.

2- **الصورة البصرية الواقعية (الاجتماعية والنفسية):**

يعتمد ابن الوردي في هذا النوع من التصوير على مشاهداته الحية وانفعالاته النفسية وتجربته الوجدانية التي سارت جنباً إلى جنب مع حياته الاجتماعية؛ فهو يعمل على توصيفها وفق صور شعرية تحمل تجربته، وتلقي بظلالها على جانب من جوانب حياته الاجتماعية والنفسية، فالواقع يقع ضمن إدراك الفنان الذي يغذي الصورة بالمادة الحسية التي تشكل جسدها، وهذا ما يطلق عليه اسم التشكيل الحسي للصورة؛ لأن الفنان يجسد تجربته من خلال المادة الحسية مما يجعلها ماثلة أمامنا، والواقع الاجتماعي يدعم الصورة بنماذجه التي يقوم الشاعر بتشكيلها وفق طرائقه التعبيرية والتصويرية، من هنا يأخذ الفن قيمته ورسالته التي يسعى إلى تحقيقها ونشرها.[1] كالصورة الشعرية التي تبلور إحساسه النفسي العميق عندما يصف فيها مشاعره تجاه فلذة كبده التي افتقدها إلى الأبد زمانياً ومكانياً، وذلك بالاعتماد على دلالة فعل الرؤية (غيبت) لرسم أبعاد صورته بطريقة حسية.

أثّر الحزن بقلبي أثراً يومَ غيّبتُ الثريّا في الثرى[2]

فشبه الشاعر ابنته التي غابت عن ناظريه بالنجم الآفل، وبذا تكون الصورة الشعرية البصرية استطاعت نقل إحساسه الشعوري المحمّل بالحزن والأسى على فراق من يحب؛ ولا سيما عندما يتعلق الأمر بفلذة الكبد؛ ليظهر الشاعر توافقاً بين قلبه وعقله، وبين المحسوس والمجرد، مصحوباً بانفعال الشاعر وعاطفته، ولكنّه في النهاية مرتبط بقصدية الشعر الأصلي[3]؛ فالشعر هو متنفس الشاعر سواءً أكان ينقل تجربة واقعية عاشها ابن الوردي بكل تفاصيلها أم كانت خيالية استجابة لصدى صوته الداخلي وتحقيقاً لرغباته، وبذلك يكون قد اعتمد في نسج صورته على طاقات اللغة التعبيرية البديعية مثل الجناس في قوله: (الثريا، الثرى)، موظفاً فعل الرؤية توظيفاً حسياً؛ لرسم صور تتناول واقع الشاعر وتحاكيه محاكاة جمالية تفيض بمشاعره الداخلية.

ومن الصور البصرية التي تحدثت عن مشاهداته، تلك التي رصد فيها وجه خباز مليحٍ من خلال الاعتماد على أدوات الرؤية، قائلاً:

رغيفُ خبازِكُم قد حوى مِنْ وجههِ التدويرَ والحمدَ لا
إذا رأى ميزانَهُ المشتري قالَ: هنا الميزانُ والزهدُ لا[4]

تصف الصورة جمال وجه الخباز الذي بدا مدوراً مثل الرغيف؛ فهي تقوم على المشاهدة الحسية الحية، من خلال المطابقة التي يجريها الشاعر في عقله بين الرغيف والوجه المدور؛ ليعزز من خلالها جمال الوجه الذي يلحظ بالنظر إليه، وهذا هو المبدأ الذي تقوم عليه معظم الصور.

ومن الصور البصرية ما يقوم على أفعال الرؤية نذكر منها صورةً يصف فيها كُفتياً مليحاً يقول فيها:

ربَّ كفْتي* ســـباني حسنُهُ لا أرى مِنْ حبهِ لي مخرجا
مذْ تبدَّى في جديدٍ فحكى قمراً طرَّزَ بالبـرق الدجـى[5]

---

[1] ينظر: الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا: د. عبد الله عساف، ص37-38.

[2] ديوان ابن الوردي: ص203.

[3] ينظر: الصورة الأدبية: د. مصطفى ناصف، دار الأندلس، ط3 ،(1983م)، ص16.

*كفتي: أي مطرز. ديوان ابن الوردي: حاشية ص448.

[4] ديوان ابن الوردي: ص446.

[5] المصدر نفسه: ص448.

يعمد الشاعر إلى الصورة البصرية؛ ليبرز صورة المليح في زيه الجديد مشبّهاً طلّته بالقمر الذي يضيء سواد الليل، مستخدماً فعل الرؤية(تبدى)، والذي يوحي بالظهور، ويلجأ في صورة أخرى إلى التنوع في وصف جمال المليحَين، وتسخير ما تركته الطبيعة من آثار جميلة في مخيلته؛ ليوظفها في عملية التصوير إذ يقول:

رأيــتُ مليحَينِ لو أُنصفــا إذا اجـتـمعــا عُـوذا بالــرقــى

غزالَيْ فلا وهلالَيْ دجــى وشمسَيْ ضحى وقضيبَيْ نقا[1]

وصف ابن الوري جمال المليحَين مبتدئاً القول بالفعل (رأيت)، والذي فتح الباب أمام استقطاب جملة من الصور الطبيعية الواقعة تحت تأثير البصر كما في قوله: (غزالي فلا– هلالي دجى– شمسي ضحى– قضيبي نقا)، وهذا التعدد في الصور مفاده توحد الشاعر مع الطبيعة وتأثّره بها؛ لأن مبعث خيال الشاعر في تشكيل صوره إنما ذلك الوجود، فيحقق خياله الانسجام مع الأشياء التي تقع خارجاً، وهذا هو لب الحقيقة غالباً.[2]

كما نوّع ابن الوردي في استخدام أفعال الرؤية؛ فأتى على ذكر لفظ (انظر) و(بدت) قائلاً: [3]

انظر إلى سطرِ عذارٍ بدتْ من تحتهِ الشاماتُ مثلَ النقطْ

فلجأ إلى استخدام فعل الأمر الذي يحمل معنى الطلب(انظر) لينبه المتلقي على شكل هذه الشامات، ولإبراز أثرها في إسباغ مزيد من الحسن على الموصوف، كما استخدم الفعل الماضي (بدت) لاستكمال معنى الظهور؛ فشكّل هذان الفعلان نواة الصورة التي أراد نسجها، وهي رؤية الشامات بشكلها ولونها، والتي ظهرت مثل النقط على السطور، وهذا يفضي إلى أن أفعال الرؤية مثّلت مركز الصورة ومدارها.

1– الصورة البصرية الضوئية:

ولأنّ الضوء يدخل ضمن حاسة البصر في الإدراك فستُدرس الصورة الضوئية بالاعتماد على مفردات الضوء، ودلالاته، وما يحمل من إيحاءات يرتكز عليها الشاعر في نسج صوره كتلك الصورة التي تعقد مفارقة بين ضوء النار نهاراً وشكله ليلاً من خلال فعل الرؤية (تراه)؛ فيقول:

تراهُ نهاراً كالبعوضةِ خسّةٌ وبالليلِ كالطودِ الذي طالَ واشمخر*[4]

ترصد الصورة الشعرية ضوء النار الذي شكل محرك الصورة، إذ جمع الشاعر بين صورتين متناقضتين للنار، الأولى تظهر ضعف ضوئه في النهار عندما شبهه(بالبعوضة الخسة)، وهذا التشبيه يظهر مدى ضعفه؛ لأنه استوحى لصورته أصغر المخلوقات حجماً، والثاني في الليل عندما شبهه بالجبل العالي؛ فقال: (كالطود الذي طال واشمخر)، واستند في تصويره إلى أكثر الأشياء ضخامةً كنايةً عن عظمته، وهذه المفارقة الضوئية في التصوير من خلال فعل الرؤية (تراه) تظهر القيمة الجمالية التي تنطوي عليها الصورة، كما تحفز ذهن المتلقي على رسم صورة مشابهة للهيب النار مع الأخذ في الحسبان الاختلاف الحاصل بينهما.

وفي مقام آخر يعقد مقارنة بين العلم والجهل؛ فيقول:

هل يستوي العلماءُ والجهالُ في فضلٍ أم الظلماءُ كالأنوارِ[5]

[1] ديوان ابن الودي: ص455.

[2] ينظر: الصورة الادبية: د. مصطفى ناصف، ص7.

[3] ديوان ابن الودي: ص412.

[4] المصدر نفسه: ص389.

[5] ديوان ابن الوردي: ص313.

يشكل ابن الوردي صورته الشعرية مستنداً إلى العنصر الحسي لبيان المعنى التجريدي[1]؛ (فشبه العلم بالنور) ليوضح أثر العلم في إنارة العقول وهدايتها، و(شبه الجهل بالظلماء)؛ ليظهر أثر الجهل في إضاعة الأمم، وإخراج المعنى التجريدي بشكلٍ حسي يعطي للصورة سهولة في الفهم وقرباً من العقل، وهذا ما امتازت به صوره الشعرية.

وللرسول صلى الله عليه وسلم كرامات حتى بعد وفاته إذ قال ابن الوردي في مدحه:[2]

صلى عليكَ اللهُ يا خيرَ الورى ما نارَ نورٌ مِنْ ضريحكَ في الدجى

كم قالَ غَـيْباً صادقاً فمقالُهُ مثلُ الصباحِ إذا بدا متبلجا

يوظّف الشاعر الأنوار الروحانية غير المرئية التي تشع من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم توظيفاً مجازياً مبيناً أثرها في هداية الناس، قاصداً بكلمة (النور) الإيمان الذي يبدد الكفر، مستفيداً من آلية الجناس (نار، ونور)، في توضيح صورته، كما يشبه الأشياء الغيبية التي كان يطّلعهُ عليها الملك جبريل عليه السلام بضوء الصباح بالاستناد إلى فعل الرؤية (بدا).

وقال في أخوين مات أحدهما وكان خيرَهما:

حياةُ البهاء كموتِ الشهابِ فهذا مصابٌ وهذا مصابْ

فليتَ الذي في الثرى فوقَهُ وليتَ الذي فوقَهُ في التراب[3]

يبدأ الشاعر صورته بالتشبيه مرتكزاً على مؤشرات الرؤية (الشهاب)؛ فوظف لفظ (البهاء) توظيفاً مجازياً للتعبير عن محاسن الفقيد، مشبهاً إياه بالشهاب الذي يخطف بسرعة ثم يتلاشى، وكذا حال من افتقده؛ فالشاعر يعتمد على آلية التقابل في التصوير التي جمعت بين (الحياة والموت)؛ مشبّهاً رحيله المبكر بضوء الشهاب الذي يزول سريعاً.

وفي موضعٍ آخر يشبه ضوء فانوسٍ بالبدر الذي حُجِبَ جزءٌ من ضوئه بغمامة فقال:

كأنما الفانوسُ في حسنِهِ بدرٌ عليهِ ظلة من غمامْ

صفا كودي وحـكَتْ نـارُهُ وجدي ومثلي ليلَه لا ينامْ[4]

شكّل الفانوس مركز الصورة الضوئية؛ إذ شبه جمال سحره بشكل القمر الذي حُجِبَ ضياؤه بغيمة؛ فاجتماع النور والظلال وإظهار جزءٍ واستتار آخر من ضوء القمر شكلا معاً محفزاً على تنشيط ذهن القارئ؛ لرسم أبعاد تلك الصورة الفنية.

2- الصورة البصرية اللونية:

يعدّ اللون من المثيرات الحسية البصرية؛ لذا كان لزاماً على الباحث أن يعرّج على الصورة اللونية ضمن مبحث الصورة البصرية، ويتناول ألوان الطبيعة التي سخرها الشاعر في تجربته، لما تحمل من دلالات، وتترك من انطباعات، فقيل: إنّ العرب استوحت كثيراً من ألفاظ الألوان من مصادر الطبيعة والمشاهدات الحسية[5] نذكر منها: اللون الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، وهذا ما دفع الشعراء إلى انتقاء ألوانهم بما يناسب حالتهم النفسية، فقد تفرز الألوان معنىً خاصاً يتعلق بهذه الصورة من دون سواها إذ " إنّ

[1] تجريدي: " وهو في الفن: صفة لذلك النوع من التصوير أو النحت الذي يفترض أن القيمة الفنية قة في الأشكال والألوان بغض النظر عن واقعية الموضوع المصور.". وهبة، مجدي – المهندس، كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة – كامل المهندس، مكتبة لبنان، ط2(1984م)، ص88.

[2] ديوان ابن الوردي: ص323.

[3] المصدر نفسه: ص317.

[4] ديوان ابن الوردي: ص331.

[5] ينظر: اللغة واللون: د. أحمد مختار عمر، الناشر عالم الكتب، ط2(1997م)، ص83.

طبيعة انتشار اللون في التعبير الأدبي، والصورة الشعرية يتطلّب منا أن نلتقي بتكويناته، ومكوناته، ودرجة توزيعه، وشيوعه، وطريقة استخدامه"[1]؛ لذا اتكأ الشعراء على الألوان وعدّوها جزءاً مهماً من مصادر الإبداع التي ينسج من خلالها الشاعر تجربته الشعرية، فتحَثْ آفاقهم على ألوان الحياة بدلالتها الحقيقية أو الرمزية في تشكيل صور شعرية تنبض بالحياة، ومن ذلك ما قاله الشاعر في سوداء تفاخر بيضاء:

سوداءُ قالتْ لبيضاءِ الأديمِ إذا فاخـرْتِ فالمتنبـي بيننـا حكمُ

فالخيلُ والليلُ حقاً عاشقي وأنا وأنتِ والعاشقُ القرطاسُ والقلمُ[2]

انطلق ابن الوردي في رسم معالم صورته الشعرية من دلالة اللون الأسود البصري، وانزاح في تركيبها بالتركيز على معنى القوة والسلطة والسيطرة؛ فذكر لفظ (الخيل): الذي يمتاز بالقوة والسرعة، وجاء على دلالة لفظ (الليل) عندما ربطه بمعنى العشق؛ فحمل المدلول "إحساساً متضخماً بقدرة الليل على الإحاطة والاكتساح،"[3] إلى جانب ما ذكره بمعنى (القرطاس والقلم)، وقصد به سواد الحبر ؛ فالصورة أفرزت كل المدلولات التي تعطي الأولوية للّون الأسود، واستخدمته استخداماً إيجابياً، وهذا ما رمى إليه الشاعر، وبذلك تختلف رؤية الشاعر للّون وكيفية التعامل معه، وهذا يرتبط بكيفية تعامله وفهمه للعالم المحيط، وترجمة نظرته للواقع الاجتماعي الذي يعيشه[4]؛ مما ينعكس حتى على استخدامه الألوان في صوره الشعرية؛ فتارة يحمل اللون الأسود دلالة القوة، وأخرى يحمل معنى البؤس والشقاء بحسب اللفظ الذي يحمل اللون، وتبعاً لدلالته العميقة، كما في الصورة التي يرسم فيها حظه العاثرَ مع الأصدقاء والأعداء، ويعدّهُ سيئاً نظراً لربط دلالة اللون بلفظ (العبد الأسود)، وما يحمل من معاني العبودية والقهر، لذلك قرنه بلفظ (شر)؛ فقال:

حظّيَ حظٌّ ناقصٌ مِنْ أصدقائي والعدى

لو كانَ حظي بشراً لكـانَ عبـداً أسـودا[5]

فجاء بتركيب (عبداً أسودا)، وما يحمله معه من مفهوم القهر والعبودية والشقاء؛ ليشير إلى ما يلقاه من تعاسة وبؤس من القريب والبعيد؛ "فدلالة اللون الرامزة ترتبط بتجربة الشاعر من خلال ارتباطها بكلمات النص والتجربة، وارتباطها بعالمه الداخلي، فهو يتصل بالنسق العام كما يعين على فهم تجربة الشاعر."[6]

واتكأ الشعراء على الألوان، وعدّوها جزءاً مهماً من مصادر الإبداع في تشكيل صورٍ تنبض بألوان الحياة بدلالتها الحقيقية أو الرمزية، كما في استخدام ابن الوردي اللون الأبيض بدلالته على "الطهر والنقاء"[7] والخصب عندما ارتبط بمعنى الحليب وما يوحي من دلالات، وذلك في صورة يصف فيها يد بدويٍّ مليحٍ مشبهاً إياها بالجبن معتمداً في تشكيل هذه الصورة على أدوات الرؤية، فقال:[8]

جاءنا مكتتماً ملتثمـا فـدعونـاهُ لأكـلٍ وعجبنـا

مدَّ في السفرةِ كفاً ترفاً فحسبنا أنَّ في السفرةِ جبنا

---

[1] الصورة الشعرية والرمز اللوني: د. يوسف حسن نوفل، دار المعارف، ص42.

[2] ديوان ابن الوردي: ص196.

[3] اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (قراءة ميثولوجية): إبراهيم محمد علي، الناشر جروس برس، تاريخ الإصدار 1 يناير 2000م، ص170.

[4] ينظر: الصورة الشعرية عند خليل الحاوي: د. هدية جمعة بيطار، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، ط1، 2010م، ص114.

[5] ديوان ابن الوردي: ص388.

[6] الصورة في التشكيل الشعري: د. سمير علي سمير الدليمي، جامعة بغداد، دار الشؤون والثقافة العامة، آفاق عربية، ط1(1990م)، ص6-7.

[7] اللغة واللون: د. أحمد مختار عمر، ص69.

[8] ديوان ابن الوردي: ص453.

وبذا يأخذ اللون الأبيض قيمته الجمالية في تشكيله الصورة الشعرية، وتكون " الإحساسات البصرية هي أهم مصدر للإدراك، كما أنها هي الإحساسات التي يصح نعتها بالجمال."[1] وللون الأبيض حضورٌ مكثف في شعر ابن الوردي؛ فيصف رِدْف المليحة وساقها بالاستناد إلى ألفاظ؛ لتكونَ خير معينٍ على جلاء صورة الجمال إذ يقول:

مليحٌ ردفُـهُ والســـاقُ مـنه كبنيانِ القصورِ علـــى الثلوجِ

خذوا منْ خدِّهِ القاني نصيباً فقدْ عَزَمَ الغريبُ على الخروجِ[2]

عمد ابن الوردي إلى جعل نسيج أطراف صورته حسياً يدرك بالبصر؛ لأنّ هذه الحاسة تعدُّ الأساس في عملية الإدراك؛ فاستخدم لفظ القصر مقروناً باللون الأبيض المرتبط بالثلج؛ لإظهار صورة الأرداف المحمولة على الساق ووضوحها.

ويعتمد ابن الوردي في نسج بعض صوره على المفارقات اللونية التي تقع حاسة البصر تحت تأثيرها؛ (لأنّ الحسن يظهر حسنه الضد)، كما في صورةٍ تجمع بين اللون الأسمر والأبيض، إذ لجأ إلى توظيف لفظ (الرمح والقدّ) مفضلاً الرمح لامتلاكه القوة، ثم وظف لفظ الأبيض في كلٍ من (الثغور والبيض)، وقد فضل السيوف؛ لأنّها تحق الحق وتزهق الباطل؛ مما يفضي إلى أنّ كلا اللونين خرجا إلى معنى القوة، وإن كانا متناقضين؛ فقال:

وما سمرُ القدود وإنْ سبتنا أحبُّ إليهِ منْ سمرِ الرماحِ

ولا بيضُ الثغورِ* إليه أشهى وإنْ عذبتْ منَ البيضِ الصفاحِ[3]

وكتب ابن الوردي أبياتاً متفرقة في الحب، فاستوحى صورة النار، ورمز بها للحبِّ؛ ليظهر معاناة العشّاق وما يكابدونه؛ فقال:

كتمْتُ في القلبِ الهوى جهدي فلمْ يكتتمِ

والنـــارُ صعبٌ كَتْمُها ما بينَ لـــحمٍ ودمِ[4]

لجأ إلى ألفاظ تحمل بين طياتها دلالة اللون الأحمر(النار، لحم، دم)، واستخدم هذه الألفاظ استخداماً مجازياً ليبين "حرارة اللون الأحمر"[5] في حالة العشق، وارتبطت دلالته في كثير من تعبيراتها بمعاني المشقة والشدة من ناحية اشتقاقها من لون الدم[6]؛ فقصد بالنار (الحب) الذي يسكن شغاف القلب ويصعب عليه كتمانه، واستعان بصورة النار لما تسببه من حرقٍ ماديّ، أمَّا الحب فهو يسبب حرقاً معنوياً، وبذلك يكون اللون الأحمر قد اكتسب معنى القوة والشدة عندما قرن بلفظ النار.

وطرّز ابن الوردي صوره بالعديد من الألوان، كما زيّن هذه الصورة الشعرية باللون الأصفر معتمداً على أدوات الرؤية إذ قال:

نارنجةٌ في غصنِها وهو نضيرٌ أمْلَدُ

كـكـرةٍ مِـنْ ذهـبٍ جـوكانهـا زبرجدُ[7]

---

[1] اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (قراءة ميثولوجية): إبراهيم محمد علي، ص38.

[2] ديوان ابن الوردي: ص324.

[3] ديوان ابن الوردي: ص382.

*الثغر: الفم، وقيل الأسنان كلها وهي في مذابتها، وقيل مقدمة الأسنان. لسان العرب، مادة (ثغر).

**الأبيض: السيف. لسان العرب، مادة (بيض).

[4] ديوان ابن الوردي: ص390.

[5] الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني: وليد مشوّح، اتحاد الكتاب العرب، 1996م، ص184.

[6] ينظر: اللغة واللون: د. أحمد مختار عمر، ص75.

[7] ديوان ابن الوردي: ص325.

فشبه النارنجة في نعومتها ونضارتها بالكرة الصفراء الذهبية؛ "فقد أطلق العرب على الذهب اسم الذهب الأصفر والصفراء."[1]مما يعطي للمعنى أهمية، ويوحي بجماله وبريقه، وهذا يفضي" إلى أنّ الصورة الشعرية تعتمد على الحواس أو المدركات الحسية اعتماداً كبيراً، ولا سيما الإحساسات البصرية."[2]

ويستمد الشاعر صورته اللونية مرتكزاً على دلالة اللون الأخضر نظراً لأهميته بوصفها عنصراً أساسياً من عناصر الطبيعة الخضراء الدالة على النماء، فصورة " الخضرة هنا رمز إلى العطاء، عطاء الطبيعة"[3]، فقال:

وفستقٍ زادَ حسنا أتاكَ مِنْ كـفِّ ريمِ

زمــرّدٌ في عقيق في عاجةٍ في أديـم[4]

يسبغ الشاعر ظلال اللون الأخضر على صورته الشعرية، مستنداً على أدوات الرؤية البصرية، وذلك بتشبيه لون الفستق الأخضر ونضارته بالأحجار الكريمة (الزمرد)؛ لامتلاكها لوناً أخضرَ جميلاً، فضلاً عن قيمته المادية بوصفه حجراً نفيساً، فأخذ المشبه قيمته من المشبه به، وبذا يكون اللون قد حمل دلالة التجدد والنماء؛ لأنه "لون الخصب والرزق في اللغة العربية،"[5] فرمز للوفرة والخير والحياة؛ لأنه لون الربيع[6] الذي يمدّ الإنسان بأسرار الحياة.

وأما فيما يخص اللون الأزرق؛ فقد "ارتبطت الزرقة أكثر ما ارتبطت في النصوص الأدبية بالعين؛ فكانت (أزرق– زرقاء– زُرق) صفة ما في العين"[7]؛ فقال مستخدماً اللون الأزرق في تشكيل صورة شعرية يصف فيها مليحةً زرقاء العينين:[8]

وبيضاءَ في عينهــا زرقــةٌ تصفِّرُني* بســــــــوادِ اللمى**

إذا قلتُ عيناي تبكي الدما تقولُ: وعيناي تحكي السما

ركز الشاعر على جعل صوره حسية المنشأ بالاعتماد على أدوات الرؤية، عندما استمدت المليحة زرقة عينيها من لون السماء؛ فأحسّ الشاعر "بشمولية اللون الأزرق أو السماوي، تلك أحاسيس والإحساس وليد المخيلة"[9]؛ مما جعل اللون يحمل بين طياته معنى الاتساع والامتداد والشمولية؛ لاقترانه بالسماء التي تمتد بلا حدود.

نتائج البحث:

درس البحث الصورة البصرية عند ابن الوردي من منابعَ مختلفةٍ؛ منها ما أُخذ من الطبيعة، ومنها ما استند على الحياة الواقعية بشقيها الاجتماعي والنفسي، ومنها ما اعتمد على الضوء، وأخرى على اللون، وخلص إلى نتائج نذكر منها:

- استطاعت الصورة الحسية البصرية أن تنقل إحساس الشاعر، وتأثره بالطبيعة الحية المتجددة، كما عبّرت عن تجربته الشعورية وإحساسه الداخلي بأسلوبٍ فني.
- شكّلت المفردات البصرية الطبيعية، والاجتماعية، والضوئية، واللونية، بدلالاتها الغنية العديد من الصور البصرية التي أفسحت المجال لإجلاء رؤية الشاعر، والتي مثّلت في مضمونها مركز الصورة.
- وظّف ابن الوردي الألوان توظيفاً حسياً بصرياً، مستخدماً مدلولاتها الحقيقية (كالأبيض، والأخضر)، أو الرمزية(كالأزرق والأحمر والأسود).

---

[1] اللغة واللون: د. احمد مختار عمر، ص74.

[2] اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: إبراهيم محمد علي، ص39.

[3] الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس: د. وحيد صبحي كبابة، اتحاد الكتاب العرب، ص107.

[4] ديوان ابن الوردي: ص331.

[5] اللغة واللون: د. أحمد مختار عمر، ص79.

[6] ينظر: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: د. إبراهيم محمد علي، ص212.

[7] نفسه، ص241.

*تصفّر: المال حسنت حاله وذهب عنه غرة الغيظ. لسان العرب، مادة (صفر).

**اللمى: سمرة في الشفّه. لسان العرب، مادة (لما).

[8] ديوان ابن الوردي: ص464

[9] الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني: وليد مشوّح، ص184.

- شكّلت الطبيعة مصدراً مهماً من مصادر الصورة البصرية.
- انطلق الشاعر في نسج صوره من حياته الاجتماعية والنفسية، وتراكماته المعرفية، التي أفصحت عن صدى صوته الداخلي، وعبّرت عن تجربته بكل مؤثراتها الداخلية والخارجية.

المصادر والمراجع:

1.بنية الصورة الفنية في النص الشعري الحديث (الحر) نازك الملائكة أنموذجاً، د. رائد وليد جرادات، مجلة جامعة دمشق، المجلد 29، العدد (1+2)، 2013م.

2. تاريخ معرة النعمان: محمد سليم الجندي، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه: عمر رضا كحالة، دمشق وزارة الثقافة، ط2 (1994م)، ج3.

3.التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، ط4.

4.الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم: د. سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2009م،

5.ديوان ابن الوردي: تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط1(1407هـ–1986م).

6. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، تحقيق :عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ،دمشق ،بيروت، مج1 ،ط1(1406هـ –1986م).

7.الصورة الأدبية: د. مصطفى ناصف، دار الأندلس، ط3 ،(1983)م

7.الصورة الشعرية الحسية: تشكيلاتها الفنية ودلالاتها الصوفية في شعر عبد الله العشي، د. لخميس شرفي، جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر، تاريخ النشر :22\3\2020.

8. الصورة الشعرية عند خليل الحاوي، د. هدية جمعة بيطار، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، ط1، 2010م.

9.الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني، وليد مشوّح، اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

10.الصورة الشعرية والرمز اللوني: د. يوسف حسن نوفل، دار المعارف.

11. الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس: د. وحيد صبحي كبابة، اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

12.الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا، د. عبد الله عساف، دار دجلة، القامشلي، ط1(1996م).

13. الصورة في التشكيل الشعري: د. سمير علي سمير الدليمي، جامعة بغداد، دار الشؤون والثقافة العامة، آفاق عربية، ط1(1990م).

14.الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري – علي البطل – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – ط2(1401هـ –1981م).

15.لسان العرب، ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت

16.اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، الناشر عالم الكتب، ط2(1997)م.

17.اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (قراءة ميثولوجية): إبراهيم محمد علي، الناشر جروس برس، تاريخ الإصدار 1 يناير، 2000م.